

التبصرة

للإمام أبي الفتح عبد الرحمن بن الجوزي

(٥١٠ - ٥٩٧ هـ)

تحقيق

الدكتور مصطفى عبد الواحد

[ينشر لأول مرة على نسخ مكتبة طاعت]

الجزء الأول

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

الطبعة الثانية

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

دار الكتب العلميّة بيروت - لبنان

ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلّكس: Le 41245 Nasher

هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨٥٥٧٣

فناكس: ٤٧٨١٣٧٣ / ١٢١٢ / ٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على خير أنبيائه ورسله ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وبعد ، فهذا كتاب « التبصرة » للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزى أقدمه للامة الإسلامية ، وهو الكتاب الثالث من كتب ابن الجوزى المتوارية التى لم تطبع من قبل ، وكان لى شرف إخراجها إلى الناس ، وكان أولها « ذم الهوى » الذى طبع منذ عشرة أعوام وثانيها « الوفا بأحوال المصطفى » وكان بعده بأربعة أعوام ، وقد رأيت فى تراث ابن الجوزى ما يستحق العناية والاهتمام ..

ولابد أن أعرض فى هذا التقديم لأمر ثلاثة : المؤلف ، والموضوع ، والكتاب .

ابن الجوزى :

أما المؤلف فهو^(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد بن على بن عبد الله بن حمّادى ، بن أحمد بن محمد بن جعفر ، الجوزى القرشى التميمى البكرى ، البغدادى ، الفقيه الحنبلى ، الواعظ ، الملقب جمال الدين الحافظ .

والجوزى : نسبة إلى قرضة الجوز - كما يقول ابن خلكان - أو إلى محلة الجوز بالبصرة كما يقول ابن العماد .

(١) ترجمته فى شذرات الذهب ٣٢٩/٤ ووفيات الأعيان ٣٢١/٢ وتذكرة الحفاظ ١٣٥/٤ ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى .

(ب)

ولد سنة عشر أو ثمان وخمسة أو قبلها ، كما يقول ابن العماد ، وكذلك يردد ابن خلكان ميلاده بين سنة ثمان وعشر ، ومات سنة سبع وتسعين وخمسة .

ونشأ يتيماً إذ مات أبوه وله ثلاث سنين فربته عمته .

قال عن نفسه : « فإن أبى مات وأنا لا أعقل ، والأم لم تلتفت إلى^(١) »

ولكنه نشأ شغوفاً بالمعرفة محباً للطلب ، فسمع الكثير وانظر في جميع الفنون كما قال : « فركز في طبعي حب العلم ، وما زال يوقني على المهم فالهم ، ويحملني إلى من يحملني على الأصوب ، حتى قوّم أمرى » .

شيوخه :

لما ترعرع ابن الجوزي حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل ابن ناصر ، وهو خاله ، فاعتنى به وأسمه الحديث ، وحفظ القرآن وقرأه على جماعة من القراء بالروايات .

وقد كان لابن الجوزي شيوخ يبلفون سبعة وثمانين ! منهم على بن عبد الواحد الدينوري ، وابن الحصين ، وأبو عبد الله البار ، وأبو الوقت السجزي ، كما كان معظماً لأبي الوفاء بن عقيل متابعا لأكثر ما يجده من كلامه .

الواعظ المحدث :

وقد اتجه ابن الجوزي منذ نشأته إلى الوعظ ، فوعظ من صغره وفاق فيه الأقران ونشأت له في ذلك ملكة عجيبة وبديهة حاضرة وتاب على يديه الآلاف وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء :

قال : « ولقد تاب على يدي في مجالس الذّكر أكثر من مائتي ألف ، وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس ، وكم سالت عين متجبر بوعظي ، لم تكن تسيل » .

(١) عبارات ابن الجوزي في الحديث عن نفسه منقولة من كتابه « صيد الخاطر » في مواضع متفرقة .

(ج)

وقد كان مجلسه في بعض الأحيان يقدر بمائة ألف ، وحضر مجلسه الخليفة المستضيء
عدة مرات من وراء الستر .

وسيتضح هذا الجانب في عرضنا لموضوع الكتاب .

كذلك اشتهر ابن الجوزي بمعرفة الحديث ولقب فيه الحافظ وصنف فيه الكثير ،
وبلغ من وثوقه بنفسه فيه أن قال :

« ولا يكاد يُذكر لي حديث إلا ويمكنني أن أقول : صحيح أو حسن أو محال » .

وليس هذا غرورا ولا ادعاء ، ولكنه قول من يعرف قدر نفسه ويحيط بموهبته ،
ولقد أخلص ابن الجوزي لعلم الحديث وبذل في سبيل بلوغ المرتبة العالية فيه الكثير .

ومن ذلك ما يذكره عن نفسه : « كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة
فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند المساء ، فكلما
أكلت لقمة شربت عليها ، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم ، فأنثر ذلك عندى
أنى عُرِفَت بكثرة سماعي لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه وأحوال
الصحابة وتابعيهم ، فصرت في معرفة طريقه كابن [بل] أجود » .

وقد ذكر ابن خلكان أنه جمعت بُراية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم فحصل منها شيء كثير ، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يفسل به بعد
موته ففعل ذلك ، فكفَّتَ وفضل منها .

عالم واسع :

ولم تكن شهرة ابن الجوزي في الوعظ والحديث لتمنعه من التبحر في غيرها
والشاركة في ألوان الثقافة الأخرى فبرع في علوم مختلفة وحاز مكانة في أكثر من
ميدان ، وطلب من كل فن ما أطاق .

قال : « إني رجل حُبِّب إلى العلم من زمن الطفولة فنشأغلت به ، ثم لم يحبب إليّ

فن واحد منه ، بل فنونه كلها ، ثم لا تقتصر همتي في فن على بعضه ، بل أروم استقصاءه .

وقد جنى من تحصيله الكثير ثمرة فائقة جعلت له منزلة عالية في جوانب الثقافة الإسلامية وأحلت له مكانا مرموقا مما جعله يقول في آخر عمره : « وما نلت من معرفة العلم لا يقاوم » .

وهو في ذلك يمثل شمول الثقافة العربية وسعة آفاقها .

فهو إلى جانب تبحره في علوم القرآن والسنة واشتغاره في ميدان الوعظ يشارك في علم التاريخ وكتبه فيه لا تقل درجة عن المصادر الموثوق بها ، وأشهرها كتابه « المنتظم في تاريخ الأمم » كما يثبت أصالته في علوم اللغة بكتب متعددة منها : تذكرة الأريب في اللغة ، والوجوه والنظائر ، وتقويم اللسان ، والمقيم المقعد في دقائق العربية . وما كان لواعظ يحدث أن يقسم اهتمامه باللغة إلى هذا الحد الذي يجعله يؤلف فيها ، ولكن ابن الجوزي كان كثيره من الأئمة الأقدمين ، يؤمن بوحدة الثقافة الإسلامية ويرى أن بعضها يخدم البعض وأن الاختصار منها على جانب ضيق في الأفق وقصور عن المعرفة .

بل إنه نظر في الطب والفراصة والتجارب وله في ذلك آثار . إلى جانب أنه كانت له حاسة أدبية مرهفة تظهر في أسلوبه الذي يتميز بالقدرة على اختيار الألفاظ في مواطنها وبالتلون في الصور والمهارة في الاقتباس ، كما يتجلى ذلك في كتابه الذي نعرضه اليوم . كما كان ابن الجوزي ينظم الشعر في مناسبات مختلفة ، وقد ذكر له ابن خلكان بعض المختارات ، منها قوله يخاطب أهل بغداد :

عذيري من فتية بالعراق	قلوبهم بالجفا قلب
يرون العجيب كلام الغريب	وقول القريب فلا يعجب
ممازيبهم إن تندت بخير	إلى غير جيرانهم تقلب
وعذرهم عند توبيخهم	مفنية الحى لا تطرب

وهكذا كان الرجل عالماً أديباً وفقهياً محدثاً وواعظاً مفكراً ، وقف موقف النقد من عصره وفكره .

موقفه من عصره ومجتمعه :

كان لابن الجوزى موقف متميز فى صلته بعصره ومجتمعه . فلم يكن من وعاظ السلاطين أو حاشية الملوك الذين تُستكمل بهم الزينة أو يملأون حيزاً يحدد لهم فلا يتجاوزونه . بل كان الرجل ذا شخصية فذة ، عرف مكانته من بيئته وعصره ، فانطلق يجاهد بسلاحه الذى يملك ، وهو البيان والتعليم ، وتجافى عن ظل السلطان ونجا من المداهنة فى قوله أو الرياء بعلمه ، فاستطاع أن يستعلن بكلمة الحق وأن يعرف الإصرار فى رأى والقوة فى الحجة والإقناع .

وتلمح خطته فى الإصلاح ومنهجه فى الثورة على المفسد والانحرافات فى كتابه « تلبيس إبليس » الذى حدد فيه موقفه من الفكر والسلوك فى عصره .

وفى هذا الكتاب يخص ابن الجوزى شذوذ أدياء التصوف ومخالفاتهم للشريعة بجانب كبير ، وقد اشتهر بعدائه للبدع وإنكاره لكل ما يخرج عن الهدى الإسلامى الصحيح ..

وهو بهذا سنى سلفى ، لا يرتبط بمذهب يحمله التعصب على نصرته ، ولا يأوى إلى رأى يزود عنه أو يقنع به ، بل هو مجتهد فى فهم الكتاب والسنة متقبلاً لما سائر العقل من الأثر ، ولهذا لم يبال أن يخالف أحداً من سبقوه ما دام ضياء العقل وبهاء النقل فى يده !

ولذلك تراه يردُّ على الإمام الغزالى كل مالا ينسق مع المنهج الفقهى الذى ارتضاه الغزالى نفسه ، إذ كان الغزالى المتصوف يناقض فى بعض الأحيان الغزالى الفقيه ! فكان ابن الجوزى يمجب من ذلك ويلفت إليه .

وقد كان ابن الجوزى حنبلياً المذهب ، إلا أنك لا تحس منه وقوفاً عند رأى ، بل

إن سناء عقله جعله يقف من التراث الإسلامي كله مُشرفاً يتطلع إلى الحق أينما كان . .
ولهذا لم يرتضِ الحنابلة أنفسهم كثيراً من آراء ابن الجوزي ، بل إنهم نقموا
عليه بعضها .

يقول عنه ابن رجب الحنبلي في كتابه « طبقات الحنابلة » : « نَقَمَ عليه جماعة
من مشايخ أصحابنا ميله إلى التأويل في بعض كلامه ، واشتد تكبيرهم عليه في ذلك ،
ولا ريب أن كلامه في ذلك مضطرب مختلف ، وهو وإن كان مطلقاً على الأحاديث
والآثار فلم يكن محلُّ شبه المتكلمين وبيان فسادها » . ثم علل اضطرابه بأنه : « كان
معظماً لأبي الوفاء ابن عقيل متابعاً لأكثر ما يجده من كلامه ، وإن كان قد ردَّ عليه
في بعض المسائل ، وكان ابن عقيل بارعاً في الكلام ولم يكن تام الخيرة بالحديث والآثار
فلهذا يضطرب في هذا الباب وتتلون فيه آراؤه ، وأبو الفرج تابع له في هذا التلون » .

ويقول عنه الشيخ موفق الدين المقدسي : « كان ابن الجوزي حافظاً للحديث وصنف
فيه ، إلا أننا لم نرض تصانيفه في السُّنة ولا طريقتة فيها » .

والحق أن تعظيم ابن الجوزي لأبي الوفاء ابن عقيل ليس تعصبا ولا جهودا ولا تعبدا
بفكره ، إذ أن ابن عقيل حسب نقوله التي يرويها عنه ابن الجوزي في كتبه المختلفة :
رجل طليق الفكر ناضج الرأي مشرق الفهم بصير في اتجاهه ، فلعل إعجاب ابن الجوزي به
إعجاب المشارب المتفقة والأذواق المتلائمة ، خاصة حين نذكر أن ابن الجوزي لم يلتق
بإبن عقيل ولم يتصل به ، فقد توفي ابن عقيل قبل أن يولد ابن الجوزي ، وكان ابن عقيل
من رجال القرن الخامس الهجري ، وكل ما هناك أن ابن الجوزي التقى به بفكره وتلمَّح
في آثاره سعة الأفق واستنارة البصيرة وحرارة الإخلاص .

ولم يكن بدُّ أن يتعرض ابن الجوزي - في صراحته وجره بالحق - لعداوات كثيرة
فكرية وسياسية ومذهبية ، جلبت عليه الكثير من الأذى والحرَج ، وقد كانت
الخصومات للذهبية تشد حتى يصيبه لَفْحُها ، وحتى تدبَّر له المكائد بسبب إعلانه لما يراه
حقاً دون خشية أو مواربة .

يروى الذهبي في « تذكرة الحفاظ » أنه « قام عليه الركن عبد السلام بن عبد الوهاب الحنبلي تجاه الوزير ابن القصاب ، وكان الركن سيئ النحلة أحرقت كتبه بإشارة ابن الجوزي ، وأعطى مدرسة الحنبلي ، فحمل الركن عليه وقال لابن القصاب الشيعي : أين أنت من ابن الجوزي ؟ ! فإنه ناصبي - أي يبغض علياً رضى الله عنه - ومن أولاد أبي بكر .

فجاءه من شتمه وأهانته وختم على داره وشتت عياله ، ثم أخذ في سفينة إلى واسط ، فخبس بها في بيت وبقي يفسل ثوبه ويطبخ ، ودام على ذلك خمس سنين ومادخل فيها حمماً ! » .

وتلك مظالم العصبية والطائفية التي عانت منها الأمة الإسلامية الرزايا العظام ! أما الخصومات العلمية فقد كان بعضها يصل إلى درجة الطعن عليه ، مثل وصف ابن الأثير له في مقدمه كتابه « اللباب » بالتدليس ، في صدد دفاعه عن السمعاني . وكان بعضها هينا من باب النقد الخفيف ، من أنه كان يقع السهو في تصانيفه وأنه كان يتم الكتاب فلا يراجع ، وأن معظم ما كتبه ليس من ممارسة العلماء .

كتبه :

كان ابن الجوزي من الأكثرين في الكتابة الموفقين في التأليف والتصنيف حتى شاعت له شهرة في ذلك وأحاطت البالغة بعدد كتبه .

فهذا ابن العماد الحنبلي يذكر أن ابن الجوزي سئل عن عدد تصانيفه فقال : « زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفًا ، منها ما هو عشرون مجلداً وأقل » .

ويقول عنه الذهبي : « ما علمت أن أحدا من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل » .

ويقول ابن خلكان : « وبالجملة فكتبه أكثر من أن تُعد ، وكتب بخطه شيئا

كثيرا ، والناسُ يغالون في ذلك » .

وقد كان الرجل عميق الثقافة متسع المدارك خاليا من الشواغل والآفات ، فأكثر

(ح)

من الكتابة والتصنيف ، ولكن هذا العدد الذى يُذكر لكتبه محوط بالتهويل والمبالغة ، ولعلمهم كانوا يعدون الأجزاء من الكتاب الواحد كتباً متعددة .

والذى يُذكر من كتبه فى التراجم التى كتبت له لا يكاد يبلغ المائة ، والمؤسف أن القدر الذى بقى من كتبه لا يزال أكثره فى طوايا النسيان يحتاج إلى من يُعنى به ويصونه من الضياع ، وهو بحاجة إلى جامعة إسلامية أو هيئة علمية تنفض عنه غبار الدهر وتدفع عنه يد البلى ، وإن الأزهر الشريف لأولى بذلك وأحق . .

إن ابن الجوزى يجد من بهتم بكتبه وآثاره من المستشرقين ، وكثير من كتبه المخطوطة فى موضع العناية فى المكتبات والجامعات الأوروبية وحين أخرجت كتابه « ذم الهوى » لم أجد فى مكتبتنا العربية نسخة منه يعول عليها ، على حين وجدت النسخة الأصلية التى قرئت على ابن الجوزى فى مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا الغربية وأخرى صحيحة كتبت بعده بقرن فى مكتبة باريس الأهلية !

وإننى لأكرر الدعوة هنا إلى أن تصان آثار ابن الجوزى وتتبع كتبه المفقودة أو النائية عنا وتستردّ عن طريق نشرها من أيدي الأوربيين الذين عنوا بترائفا وحازوا أصوله على حين غفلة منا واستهانة .

ولا بأس أن نذكر هنا بعض ما عرف من كتب ابن الجوزى فى الفنون المختلفة ونشير إلى المطبوع منها .

١ - فى علوم القرآن وتفسيره :

- ١ - المغنى فى علوم القرآن .
- ٢ - فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن
- ٣ - زاد المسير فى علم التفسير
- ٤ - المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن

(ط)

- ٥ - التفسير الكبير في عشرين مجلدا
٦ - إخبار أهل الرسوخ بمقدار الناسخ والنسوخ [طبع سنة ١٣٢٢ هـ]

ب - علوم الحديث :

- ١ - الكشف في أحاديث الصحيحين
٢ - تهذيب المسند . عشرون مجلدا
٣ - المختار من أخبار المختار
٤ - مشكل الصحاح - أربعة مجلدات
٥ - جامع المسانيد - سبع مجلدات
٦ - الموضوعات [طبع بالهند]
٧ - الواهيات
٨ - الضعفاء
٩ - تلقيح فهوم أهل الأثر [طبع بالهند]

ج - الوعظ :

- ١ - بستان الواعظين
٢ - نتيجة الإحياء . اختصر به إحياء علوم الدين للغزالي
٣ - تبصرة الأخيار
٤ - روح الأرواح [طبع]
٥ - الثبات عند المات
٦ - المورد العذب
٧ - لفظة الكبد إلى نصيحة الولد [طبع]
٨ - القصص والمذكرون

(ى)

- ٩ - منهاج المريدين
- ١٠ - التبصرة [وهو الذى تقدمه اليوم]
- ١١ - المدهش [طبع]
- ١٢ - رموس القوارير فى الخطب والمحاضرات والوعظ والتذكير . [طبع]
- ١٣ - تنبيه النائم الغمر على حفظ مواسم العمر
- ١٤ - الياقوتة فى الوعظ

د - التاريخ والتراجم :

- ١ - المنتظم [طبع]
- ٢ - مختصر المنتظم
- ٣ - مناقب عمر بن عبد العزيز [طبع]
- ٤ - شذور المقود فى تاريخ اليهود
- ٥ - صفة الصفوة [طبع]
- ٦ - مناقب أحمد بن حنبل .
- ٧ - الذهب المسبوك فى سير الملوك
- ٨ - فضائل القدس .
- ١٠ - أخبار النساء
- ١١ - مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن
- ١٢ - مناقب عمر بن الخطاب [طبع]
- ١٣ - الوفا بأحوال المصطفى [طبع]

٥ - علم الكلام :

- ١ - التحقيق في مسائل الخلاف
- ٢ - الإنصاف في مسائل الخلاف
- ٣ - دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة [طبع]
- ٤ - تجريد التوحيد المفيد

و - اللفظة والأدب :

- ١ - تقويم اللسان
- ٢ - المقيم المقعد في دقائق العربية
- ٣ - تذكرة الأريب
- ٤ - الوجوه والنظائر في اللفظة
- ٥ - الأذكياء [طبع]
- ٦ - الحق والمففلون
- ٧ - ذم الهوى [طبع]
- ٨ - المقامات
- ٩ - لقط المنافع في الطب والفراسة عند العرب

ز - النقد الديني والاجتماعي :

- ١ - صيد الخاطر [طبع]
- ٢ - تلبيس إبليس [طبع]

وهذا التراث الوفير قليل من كثير مما كتب ابن الجوزي ، وكل له من كتب شتى

منثورة في المكتبات القاصية ، مما يحل حقا علينا أن نصون هذا التراث حتى لا تحرم أمتنا من كنوز علمائها وهداياها ، وحتى لا يحتجب عنا هذا الضياء أشد ما نكون حاجة إلى سناه وهداه .

هذا الكتاب

والكتاب الذي نقدمه اليوم لابن الجوزي هو أجمع ما ترك ابن الجوزي في علم الوعظ الذي اشتهر به وغلب عليه . فقد كان ابن الجوزي - كما قدمنا - صاحب ملكة في الوعظ جعلته يؤثر في الناس ويجمع حوله القلوب . وقد صاحبه هذه النزعة منذ نشأته . وقد أراد ابن الجوزي أن يسجل ملامح هذه الموهبة في كتاب التبصرة الذي أراد منه أن يكون كتابا في « علم الوعظ » يغني عن النظر فيما صنعه بعض الأعاجم من كتب في هذا الموضوع ، كما يذكر ابن الجوزي في مقدمة كتابه^(١) .

ومن هنا أراد ابن الجوزي أن يجعل من كتابه مرجعا في هذا العلم يُغني عن النظر فيما سواه فتوسع فيه ما شاء وتفنن ، وجمع فيه بين مواد من الثقافة الإسلامية ونظمها في سياق لا اضطراب فيه ولا اختلاف .

وقد قسم ابن الجوزي كتابه إلى تسع طبقات تجمع أبوابا كثيرة من جوانب العقيدة والتشريع والأخلاق والقصص والسير ، وكلها تحوى مائة مجلس ، معظم صدورها تقوم على خبر أو رواية وأمعاجها تقوم على آيات مختارات مما يرقق القلوب ويهذب النفوس والأخلاق .

ولا يذكر لنا ابن الجوزي في مقدمته شيئا عن كتب الوعظ التي ألقت من قبل ، وأظن أنه ما سبق ابن الجوزي أحد في هذا الباب إلا الإمام أبو حامد الغزالي في كتبه المعروفة ، إلا أنه لم ينح بها منحنى الصنعة والتفنن في علم بعينه ، ولكنه جعلها كتب حقائق ومعارف .

أما ابن الجوزى فإن كتابه هذا يمثل تطور صناعة الوعظ كفن مستقل له خصائصه الأسلوبية وملاحظه البديعية التي أثرت فيه وميزته إلى عهد قريب .

إلا أن كتاب التبصرة لا يمكن اعتباره كتابا خالصا في الوعظ ، رغم ما يجمعه من فنونه المتنوعة ، ففيه كما أشرت مواد من الثقافة العربية تجمل له قيمة علمية إلى جانب غايته الخلقية :

١ - وفيه مادة واسعة من التفسير ، تستعرض الأقوال وتحشد الروايات وتفصل الآراء ، إذ أن ابن الجوزى في آياته المختارة وفي شرحه لما يبنى عليه مجالسه ، يعنى بإيراد أقوال المفسرين على نحو مفصل ، ويذكر لكل قول ما يؤيده من رواية ، مما نرى فيه نموذجا للتفسير بالنقل والأثر .

ب - وفيه مادة لغوية أصيلة ينقلها ابن الجوزى عن أئمة اللغة والنحو كسيبويه والزجاج والقراء وابن الأنباري وأبو عبيدة ، كاستشهاده على أن أصل ملك^(١) ملائكة . وكتفسيره اللغوي لقوله تعالى : « وضاق بهم ذرعا^(٢) » وتفسيره للرحيق المختوم^(٣) ، وكتخريجه لقراءات : « وحوور عين^(٤) » وغير ذلك مما يشيع في الكتاب من وجوه وقراءات .

ج - وفيه مادة أدبية ، هي أوسع ما تضمنه الكتاب ، وهي ذلك الشعر الذي جعله ابن الجوزى وسيلته في التأثير والإيحاء .

وهذا الشعر هو أهم مادة قدمها إلينا الكتاب ، من حيث إنه حفظ لنا تراثا أدبيا إسلاميا لم يمتح به أصحاب المجموعات والمختارات الأدبية ، هو شعر الزهد والرقائق والتأمل والاعتبار ، وبعض هذا الشعر معروف النسبة ، وهو قليل ، وقد نسبته إلى أصحابه كأمية ابن أبي الصلت وسابق البربري وأبو العتاهية وابن منذر ، وكثير منه لا يعرف قائله ، ولم يرد في المصادر الأدبية المتداولة .

ومما يزيد في قيمة هذا الشعر الوارد في كتاب التبصرة ، أنه ليس نظاما سخيفا ولا تكلفا متمحلا ، وإنما هو - في أغلبه - شعر يجمع مقاييس الجودة في شكله ومضمونه ويصدر عن عاطفة صادقة ونظرة حكيمة ، مما يبطل الوهم الذي كان يسود بين النقاد الأقدمين من أن أعذب الشعر أكذبه ! وأن الشعر نكد يضعف في الخير ويقوى في الشر !

والحق أن ابن الجوزي قد أسدى إلى الأدب الإسلامي صنيعا لا تنكر حين جمع في كتابه هذا الحشد الضخم من المختارات الشعرية التي تصور كيف تمثل الأدب العربي معاني الإسلام وكيف عبر عن الحقائق التي آمن بها الوجدان العربي ، ولو أن ابن الجوزي عني بنسبة هذا الشعر إلى قائله لمت الفائدة ولاستطعنا أن نصدر حكما في مواقف العصور الأدبية من قضية الأدب الإسلامي على نحو دقيق .

ويبقى في ظني أن ابن الجوزي قد أورد في هذا الكتاب شيئا من أشعاره هو ، إذ كان ابن الجوزي ينظم الشعر ، كما ذكر ذلك ابن العماد وابن خلكان ، وما كان يقصر عن النظم في هذا الموضوع الذي ملأ عليه اهتمامه وجرى مع طبيعته .

ويمتاز ابن الجوزي في استشهاده بالشعر بحاسة مرهفة تجمله يضع كل شاهد في موضعه الذي يؤثر فيه غاية التأثير ، وذلك دليل على القدرة على الرواية والتذوق الأدبي الصحيح .

د - ويبقى بعد ذلك مادة الوعظ في الكتاب ، وهي تلك المقالات الإنشائية المسجوعة في الغالب ، التي ضمنها ابن الجوزي معانيه في الحث على الزهادة والتذكير بالآخرة والتحذير من الذنوب ، وهي أغلب المعاني التي ترد في هذه المقالات .

واختيار ابن الجوزي للسجع في هذا الجانب دليل على ما كان للسجع من تأثير على الأسماع ، وقد أتى ابن الجوزي بسجعه طبيعيا غير مستكره ، مما يدل على تفننه في

(س)

التعبير وامتلاكه لزمام أسلوبه . كما عنى ابن الجوزى فى هذه المقالات بالصور البيانية من استعارة وتشبيه وكناية ، قصدا إلى التأثير أو الإيضاح .

وإئن كان ذوقنا الأدنى فى العصر الحديث لا يرضى عن السجع ولا يؤثره فى التعبير ، إلا أنه لا يمكن تطبيق هذا المقياس على عصر ابن الجوزى الذى كان يرى فى السجع قدرة أسلوبية وخاصة فى مواطن التأثير والتحذير .

وابن الجوزى قد عرف فى أسلوبه كلا اللونين : المرسل والسجع ، ويمثل أسلوبه المرسل كتابه : صيد الخاطر الذى جملة تأملات طليقة فى جوانب الدين والفكر والحياة . فلم يكن يلتزم السجع قى كتبه ولكنه رأى ذلك اللون البديعى مناسبا لمجال الوعظ الذى يتطلب التفنن فى التأثير والإيحاء ، ونحن نعلم أن السجع ليس معيبا لذاته ، وإنما يعاب حين يستكره الأسلوب عليه وتضطرب المعانى من أجل الإتيان به ، أما حين يأتى مطاوعاً للفكرة موافقاً للسياق فهو محمود مرعوب .

وهكذا نرى فى كتاب التبصرة مجموعة من ألوان الثقافة الإسلامية والعربية الأصيلة إلى جانب لونه الأدبى الطريف ، وذلك ما جعلنى أرى فى نشره فائدة محققة إلى ما فيه من صون لتراث ابن الجوزى وإحياء آثاره .

وقد التزم فيه ابن الجوزى الصحة فيما يذكره من روايات وأخبار ، إلا فى جانب قليل ، كحديث موضوع أشرت إلى وضعه نقلا عن ابن الجوزى نفسه ! وكأخبار وهب ابن منبه الواهية التى يتحدث فيها عن القدماء بغير حجة ولا أثر ، وقد أشرت إلى ذلك فى مواطنه .

منهج التحقيق :

اعتمدت في إخراج هذا الكتاب على أربع نسخ خطية :

١ - نسخة مكتبة طلعت ١٤٤٩ تصوف وقد كتبت في القرن السابع الهجري إلا أن بها خروما في مواضع متفرقة . ورمزت إليها بحرف (ا)

٢ - نسخة مكتبة طلعت ١٤٤٨ تصوف وهي كاملة وبها زيادات عن النسخة السابقة وقد رمت لها بحرف (ب) ويبدو أنها مكتوبة في نحو القرن التاسع الهجري .

٣ - نسخة دار الكتب ٢٦٠١ تصوف وأظنها منقولة عن النسخة السابقة إذ أن أخطاءها واحدة . ورمزت لها بحرف (ج) .

٤ - نسخة مكتبة طلعت رقم ١٤٩٢ تصوف وهي مختصر لكتاب التبصرة اسمه : تذكرة الأبقاظ من تبصرة الوعاظ ، اختصره محمد بن ملا الحنفى في القرن الثامن الهجري . وهذا المختصر دقيق جدا في كتابته وتصحيحه ، وقد كنت أعتمد عليه في تصويب أخطاء نسخ ب ، ج في المواطن المفقودة من نسخة ا التي تعتبر النسخة الأم ، لولا أنها غير كاملة .

وقد أثبت أهم الفروق بين هذه النسخ ، وضبطت ما يحتاج إلى الضبط ، وعرفت ببعض الأعلام ، وخرجت كثيرا من أحاديث الصحيحين ، ونسبت ما أمكنني الاهتداء إليه من الشعر إلى أصحابه ، وشرحت الألفاظ اللغوية التي تحتاج إلى الشرح ، وراعى في ذلك كله الاختصار والاقتصار على المهم ، إذ أن الكتاب طويل يبلغ في أصله ثلاثة أجزاء كبيرة ، فلم أر أن أزحم هذا الأصل الطويل بما يزيده طولاً أو يخرج به عن مقصوده .

(ف)

وقد وقعت في هذا الجزء أخطاء بسيرة أشرت إلى أهمها ، وسوف أثبت ما يظهر لي بعد ذلك منها في الجزء الثاني من الكتاب .

وحسبي في هذا العمل ما فيه من نية صالحة وجهد مبذول ، وأن يكون فيه مشاركة في حفظ تراث الإسلام وإبلاغ رسالته ، والله الحمد في الأولى والآخرة ومنه وحده المعونة والتوفيق ؟

د . مصطفى عبد الواحد

بجمع اللفة العربية - القاهرة

ربيع الثاني سنة ١٣٩٠ هـ

يونية سنة ١٩٧٠ م

